

اهتماماتُ الفرنسيين باستكشافِ إقليم تنزروفت (1900.1962م)

The French interests in exploring the region of Tanezrouft 1900-1962

د. أحمد بوسعيد^{1*}

¹ جامعة أحمد دراية- أدرار (الجزائر)، ahm.boussaid@univ-adrar.edu.dz

تاريخ النشر: 2022/12/25

تاريخ الاستلام: 2021/12/07

ملخص:

يربط إقليم تنزروفت Tanezrouft الجنوب الجزائري بشمال مالي، وهو يندرج ضمن أقاليم منطقة توات، غير أنه يُميّز عنها بطبيعة تركيبته الجغرافية القاسية، وبانتفاء ظاهرة انتصاب القصور بين أرجائه، رغم ذلك فقد أثار فضول المستكشفين الفرنسيين في النصف الأول من القرن 20م. تحاول هذه الورقة البحثية تتبّع مساعي الجغرافيين الاستعماريين، من أمثال: تيودور مونو T. Monod وريمون فيرون R. Furon ونيكولاس مانشيكوف N. Menchikoff الرامية لاستكشاف هذا الإقليم جيولوجياً، مع إمكانية اتّخاذة همزة وصل بين "مُستعمرة الجزائر" والأسواق الإفريقية. كلمات مفتاحية: تنزروفت؛ البعثات العلمية؛ المستكشفون الفرنسيون؛ الصحراء الكبرى.

Abstract:

The connection between the north of Mali and the south of Algeria goes through the region of Tanezrouft. This region is among the major regions of the historic Touat. However, it in the fact that it has a harsh geographical structure with few ksours throughout. Despite the harsh conditions of Tanezrouft, the French explorers were curious to discover this region.

This research paper aims to investigate the colonial geographers' efforts, such as: T. Monod, R. Furon, and N. Menchikoff to explore Tanezrouft geologically, in order to check the possibility of using it as a link between the Algerian colony and the African markets.

Keywords: Tanezrouft; scientific expeditions; French explorers; the Great Desert.

مقدمة:

لم يخلُ النصف الثاني من القرن التاسع عشر من عشرات البعثات الاستكشافية العسكرية الفرنسية التي حاولت كسر صمت الصحراء الجزائرية، قادها ضباطٌ فرنسيون، بهدف التوسع في واحاتها، والسيطرة على مقدّراتها، منها بعثات: ميرشير

Mircher، وبولينياك Polignac، وفاتون Vatoune، والضابط فلاترس Flatters، والضابط كاميل دولس Camile Douls، والرهبان الثلاثة: بوشار Bouchard، مينوري Menoret، وبولمي Paulmier.... لكنّها في معظمها لم تحقّق الغاية من إرسالها، بل أثارت غضب وحنق ساكنة الصحراء.

تركّزت اهتمامات المنظرين الاستعماريين في أول الأمر على الحيّز الجغرافي العام من قبل قبائل التوارق، نظراً لمساحته الشاسعة واعتباره باباً رئيساً من أبواب بلاد السودان الغربي، ففي سنة 1860م كتب دي كولومب De colomb "مذكرة حول واحات الصحراء والطرق المؤدية إليها"، في محاولة لاستكشاف هذا المجال غير المعروف إلى حد كبير من قبل العسكريين الفرنسيين، وفي سنة 1864م عرّف دوفيري Duveyrier بطوارق الشمال؟ أمّا رينيه باسيه René Basset فكان أول أكاديمي ينجز عملاً هاماً سمّاه "ملاحظات عن المعجمية البربرية"، وفي سنة 1890م نشر العسكري ديپورتر Deporter لوحاته حول أقصى جنوب الجزائر، واصفاً القصور التي عرفها والطرق المتبعة والمسافات والمصادر الطبيعية وكذلك معطيات حول السكان (لبيل، 2008: 05). ثم لحقه بيسيل Bissuel سنة 1891م في مجموع أبحاث ودراسات عن "الصحراء الفرنسية"، ثم فويو P. Vuillot في دراسة تاريخية جغرافية بعنوان "اكتشاف الصحراء" سنة 1895م.

مع احتلال الفرنسيين لواحاح الجنوب الجزائري مطلع القرن 20م تغيرت معطيات ووسائل "البحث الاستعماري" حول الصحراء وشواطئها، فنشر مارتان A.G.P. Martin كتابيه الهامّين: "الواحاح الصحراوية"، و"أربعة قرون من تاريخ المغرب الأقصى" سنتي 1908م و1923م. وعكف غوتيه Gautier على إصدار عديد الدراسات المتعلقة بهذا الفضاء الواسع، ثم تكلّلت تلك الأبحاث بمجموعة من المؤلفات والمقالات، كان لإقليم تنزروفت الموغل في الصحراء حظاً وافراً منها.

لم يكن إقليم تنزروفت مثار اهتمام شديد مثلما هو الشأن بالنسبة لأقاليم: تيدكلت، توات الوسطى وقورارة. رغم ذلك فقد أثار فضول المستكشفين الفرنسيين طيلة

النصف الأول من القرن 20م، أمثال: غوتيه E. F Gautier وشودو R. Chudeau ومونو T. Monod وفرون R. Furon ومانشيكوف N. Menchikoff وغيرهم. وذلك عطفاً على خلفيته التاريخية المُجيلة إلى ممالج "تغازة" و"تاودني" الشهيرة، والرابطة إياه بحاضرة تنبكتو المثيرة لأطماع الأوروبيين.

ترنو هذه الدراسة إلى الإجابة عن الإشكال المتعلق بماهية الاهتمام بالاستكشاف العلمي لصحراء تنزروفت القاحلة، من لدن الباحثين الفرنسيين، وكذا تفسير طغيان المنحى العلمي الجغرافي والجيولوجي على ذلك الاهتمام. هل يعود ذلك إلى دوافع أو منطلقات علمية بحتة، أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون منفذاً نحو التوسع الاستعماري بغطاءٍ علمي؟

من خلال ما سبق يمكن الوصول إلى الهدف من هذه الدراسة، وهو استعراض أهمّ الأبحاث الفرنسية التي استهدفت صحراء تنزروفت بالعرض والدراسة، بعد التعرف على أهمّ المضان التاريخية التي أشارت إلى هذا الإقليم، وبوادر الاستكشاف الأولية حوله، وكذا الطبيعة الغالبة على هذا النوع من الاستكشاف العلمي. في إطار منهجية تاريخية استقصائية، تحاول أن تسترجع الكم الهائل من الأبحاث حول تنزروفت، وتُقارب بين ما توفّر منها وبين ما يكون قد حقّق جزءاً من أهدافه.

1. إقليم تنزروفت الخلفية التاريخية:

تنزروفت جزء من الصحراء الكبرى؛ صحراء شاسعة، رمالها حصوية بيضاء، يحدها شمالاً إقليم توات المتصل بها، ومن الشرق جبال الهقار ومرتفع آهنت، ومن الغرب عرق شاش وعرق إيقيدي. تشمل حيّزاً جغرافياً كبيراً، يُماثل طوله عرضه في حدود 600 كلم، تنعدم بها الحياة النباتية والحيوانية. (Gautier, 1908 : 15). كما أنّ تنزروفت تحوي فلكياً نقطة التقاطع الكوكبي الافتراضي بين خط الزوال غرينتش ومدار السرطان الواقع شمال دائرة الاستواء.

يرتبط إقليم تنزروفت جغرافياً وحضارياً بأقاليم توات، فهو منفذ توات إلى بلاد الأرواد أو أدرار إيفوغاس، كما أنَّ الوادي الوحيد الذي يصل إلى منطقة توات، حيث يحمل فيها اسم وادي مسعود (أنظر التعليق رقم: 1)، يصبُّ مياهه في حالات نادرة بصحراء تنزروفت (Devors, 1947: 224). لذلك يمكن القول أنَّ تنزروفت جزءٌ من منطقة توات، لاعتبارات جغرافية وحضارية. وحتى الاسم الذي تحمله تنزروفت مشابهٌ لأسماء حواضر توات وقصورها، ذلك الاسم الذي يعني الأرض القاحلة الجرداء، وقد سمّاها التوارق الأمازيغ للمتونيون بـ "تنزروفت"، لانبساطها في المفازة الموحشة المخيفة، الواقعة غرب مضاربهم بجبال الهقار.

لم يُشير الإخباريون والجغرافيون الأوائل إلى إقليم تنزروفت باسمه، فما صنّفه ابنُ حوقل والبكري والإدريسي وكذا ابن بطوطة وابن خلدون وغيرهم يخلو من ذلك، ولعلّهم أشاروا إليه في معاني حديثهم عن الصحراء التي تعقب إقليم توات جهةً بلاد السودان؟ من أمثلة ذلك ما أورده صاحبُ "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي"، حين تحدّث عن معارضة بعض علماء مراكش لغزو السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي لبلاد السودان، بعد أن سيطرت قواته على صقعي توات وتيكورارين (قورارة) عنوةً وعُنفاً سنة 1581م، وكانت حُجَّتهم في الاعتراض هو وجود "صحارى مخوفة ومفاوز مُهلكة من جديها وعطشها!" وأنَّ "دولة المرابطين على ضخامتها ودولة الموحيدين على عظمتها ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همّةٌ أحد منهم لشيء من ذلك لما رأوا من صعوبة مسالكها وتعذُّر مداركها!" لكن المنصور الذهبي أبى تلك الأعذار، وحاجَّجهم بأنَّ التجار على حالة ضعفهم وقلة استعدادهم يشقُّون تلك الطرق في كلّ وقت، فأرسل جيشه الضخم، وعبر محاذياً لتلك الصحراء، حتى وصل مملحة تغازة، ومنها قصَدَ مُبتغاه مدينة تنبكتو (اليُفراني، 1888: 91).

انفرد الرحالة الحاج البشير البُرْتُلي الولاتي بتقديم وصف دقيق لصحراء تنزروفت الموحشة سنة 1789م، أرفقَه بكثير من الدهشة والغربة، مبرزاً معاني الشدة والإيحاش

بين الحصى والرمال، وتطرق إلى صعوبة اجتيازها لقلة مظاهر الحياة فيها (البُرتلي الولاتي، 2021: 41).

يمتدُّ إقليم تنزروفت جنوباً ليلاصق بعض ممالج صحراء أزواد الشهبيرة، وعلى رأسها "تاودني"، التي نشأت منذ القرن 16م، واشتهرت بمقالع الملح الضخمة، واستطاعت أن تغطي بشهرتها شهرة مملحة "تغازة" القريبة منها، التي أطبق ذكرها آفاق حواضر السودان، باعتبارها مصدر الملح الذي يستعمله سكان بلاد السودان الغربي. (مارتي، 1985: 94). ولعلَّ مملحة تغازة أقرب إلى إقليم تنزروفت، وهي التي عزم السلطان المنصور الذهبي على الوصول إليها وفرض الضرائب على منتوجها من الملح لصالح المخزن، بحجة سلطته الشرعية والجهادية على هذه النواحي، وتمَّ ذلك فعلاً، حيث وصل الجنود المغاربة إلى هذه المملحة من الجهة الغربية لتنزروفت (جهة السوس ووادي درعة) سنة 1585م (مارتي، 1985: 94).

2. تنزروفت أرض العطش والتَّيه!

يُعدُّ الرحالة الشنقيطي البُرتلي من القلائل الذين كتبوا عن معاناة العابرين صحراء تنزروفت في أواخر القرن 18م، كيف لا وقد مكث في مساراتها مع صحبه مدة أسبوع كامل، وتنزروفت . حسب المؤلّف . مفازة عظيمة، لا تسلكها القوافل إلا نادراً، لانعدام الماء بها، خصوصاً في فصل الصيف الحار، أرضها حصوية خشنة مستوية، لا شجر فيها ولا نبات ولا حيوان، (البُرتلي الولاتي، 2021م: 50). وكان اليُفراني . قبل ذلك . قد أورد تخوُّف بعض المغاربة من هذه الصحراء الشاقة، وذلك بعد أن استولى المنصور الذهبي على منطقة توات، وتاقت همَّته للسيطرة على ما وراء صحرائها، فقالوا: "إنَّ بيننا وبين السودان مهمة فيح، يقصُر عنه الخطا، وتحير فيها القطا، وليس فيها ماء ولا كَلا، فلا يتأتَّى السَّفر فيها لاعتساف طرقها، مع كونها مخوفةً مملوءةً الجوانب دُعرا!" (اليُفراني، 1888: 91).

تواترت أخبار تنزروفت على مسامع وروايات الفرنسيين قبل أن يهتوا بالتحري عن طبيعتها، واسترجعوا من ذاكرة النصف الثاني من القرن التاسع عشر رحلات مغامرين فرنسيين وأوروبيين، منهم من اجتاز مفاوز الصحراء، وأصاب هدفه في ما وراءها، ومنهم من هلك دونه. ارتسمت في مخيلة هؤلاء عن تنزروفت صور مُعْتَمَة، منها: أنّها صحراء على مدِّ البصر، لا يخرج منها سالماً إلّا مَنْ له دراية بحركة النجمين السماويين الذين يُرافقان العابرين من زمن الولوج إلى حين الخروج! (Sabatier, 1891 : 255).

تناقلَ بعضُ المستكشفين الفرنسيين في كتاباتهم وصف الأب شارل دو فوكو P. de Foucauld لتنزروفت مطلعَ القرن العشرين: "تنزروفت؛ صحراء واسعة، رُقٌّ عقيم، دون ماء، ولا مرعى!" مردّدين أنّ الغالب على سطح تنزروفت هو الثنائية المتلازمة: Reg-Erg أي: رُقّ. عرق! في نفس الفترة تقريباً عرّف الجغرافي والمستشرق الفرنسي غوتيه Émile-Félix Gautier تنزروفت بأنّها: "تقع غربي الكتلة الوسطى بين أهناات وأدرار إيفوغاس، أشدّ الجهات قحولة، فهي صحراء الصحراء!" (Gautier, 1908 : 15). وأطلق على هذه الفلاة الموحشة وصف "الأخدود الجهنمي!" (Gautier, 1903 : 364). من بين كلّ أنحاء الصحراء فإنّ أشدّ المناطق صحراءً. حسب أحد الفرنسيين . هي تنزروفت (Dehéraïn, 1926 : 178).

من مخرج رقان جهة الجنوب تكاد تختفي ملامح الحياة، وتفتح تنزروفت ذراعها، لكن لا يجرؤ على مواجهتها سوى مَنْ حظّه سيء من المسافرين المتهورين! : Devors, 1947 (228). يرسم المستكشف الفرنسي هنري لهوت Henri Lhote منظرًا طريفاً لكيفية طيّ المسافات والمراحل داخل صحراء تنزروفت من طرف الأهالي (السكان الأصليين)، وذلك بمجرد عزمهم على اجتيازها: ".... إذا قُدِّر لبعضهم مواجهة صحراء تنزروفت؛ فإنّهم يتقدّمون فيها مُسرّعين، دون إضاعةٍ للوقت، يُضاعفون المحطات ويمشون حوالي أربع عشرة ساعة في اليوم. بهذا الشكل يضمنون اجتيازها دون خطر كبير!" : Lhote, 1937 (44).

في سنة 1920م هَوَتْ طائرة الجنرال الفرنسي هنري لايرين Henry Laperrine على بسيط تنزروفت بسبب نقص البنزين، في أول عبور فرنسي جوي فوق هذه الصحراء، مما أدّى إلى وفاة قائد الرحلة الجوية، وتمكّن رفاقه من انتشال جثته لاحقاً بمشقة كبيرة، باستخدام سيارات مخصّصة للبحث، وبمعاونة مفرزة من المهاري. وفي سنة 1933م تكرّر ذلك المشهد المرعب مع طائرة النقيب الإنجليزي ويليام بيل لانكاستر William Bill Lancaster، الذي انطلق من رقان قاصداً النيجر، واختفى في تنزروفت، ورغم عمليات البحث المتواصلة إلا أنّه لم يتم العثور عليه! (Demoulin, 1939 : 491).

في سنة 1942م انطلقت بعثة المستكشف ميندروف Meyendorff من تاودني قاصدة أدرار، وفي عمق تنزروفت مات هذا المستكشف عطشاً، بعد أن أجهدته البحث عن الماء ليلاً، ومن سوء حظّه أنّ البئر المعلّمة على خريطته لم تكن بعيدة عن المكان الذي قضى فيه! (Larnaude, 1946 : 295). تلکم النماذج عن شخصيات فرنسية ابتلعتها صحراء تنزروفت؛ زادت من حدّة الرعب المرادف لاسمها، ومن إصرار الفرنسيين على توفير الحد الأدنى من قدرات التدخل والإنقاذ، لتفادي تلك المشاهد لاحقاً.

أُحيطت بصحراء تنزروفت في ذاكرة العامة العديد من الأساطير الشعبية الموهلة في المجهول والخارق: أرض الشياطين، محبس الجن، دعاء أحد الشيوخ عليها! لكن الفرنسيين لم يأبهوا بذلك، وسعوا إلى إجراء المزيد من التحري عن هذه المنطقة، بما يضمن تأمين حياة مستكشفهم، وتحقيق دراساتهم الميدانية، واستمرارية حركة بعثاتهم وملاحظتهم الجوية للربط بين ضفتي الصحراء.

من أجل ضمان عبور آمن لمستكشفهم وقواتها شرعت السلطات الفرنسية سنة 1933م في جلب سيارات مجهزة لذلك الغرض، توالى قدومها إلى البرج العسكري الفرنسي برقان تباعاً. استفاد الفرنسيون في هذا الشأن من تطوير شركة ميشلان Michelin لإطارات XY المكيفة للاستخدام في المناطق الصحراوية الرملية، وكذا من تجارب أوروبية سابقة لمحاولة عبور تضاريس رملية مشابهة، باستخدام شاحنات خفيفة بأربع أو ست

عجلات، ذات الضغط المنخفض، من نمط جيب jeep البريطاني، مجهزة بمحرك لاندروفر Land rover المرن (169 : 1958 Galibert).

استُخدم ذلك النوع من السيارات لعبور رقّ تنزروفت من طرف الجغرافيين الاستعماريين، مستغلّين منارات أو علامات عالية Des Balises، مرقّمة وامتتالية كلّ 100 كم أو أقلّ. بلغ عددُ تلك الإشارات الضخمة 16 إشارة، وضعتها الشركة العامة العابرة للصحراء CGT (Compagnie générale transsaharienne) على طول الطريق، بدءاً من رقان، مروراً بـ Poste Weygand (250 كم) و Bidon 05، ثمّ Bordj Le Prieur أو برج باجي مختار (أنظر التعليق رقم: 2) وصولاً إلى تساليت شمال مالي الحالي (Société Shell, 1934: 43).

رغم أنّ مقطع تنزروفت كان حينها جزءاً رئيساً من طريق "كولومب بشار - غاو المالية"، التي اعتبرها المستكشف الفرنسي فيرون Furon أقدم وأهمّ طريق بالصحراء، غير أنّه وُصِفَ في وثيقة أرشيفية فرنسية بتاريخ 01 جانفي 1931 م. قبل بدء عملية التهيئة الاستعمارية. بعبارة "Pays de la soif et de la mort" أي أرض العطش والموت!؟ (Le Transafricain, Janvier 1931: 03).

3. طلائعُ مستكشفي مجال تنزروفت:

لم يعدم ذكرُ إقليم تنزروفت وجوداً في بعض الكتابات الفرنسية أواخر القرن 19 م، منها إشارة نادرة إلى اهتمام الدكتور هاينريش بارث Heinrich Barth (صاحب الرحلة الشهيرة إلى تنبكتو) بجمع بعض المعلومات عن إقليم تنزروفت، وعن الأودية التي ترتبط به، مثل وادي تادك، وادي جينيناو، وادي إيمسين، خاصة من جهة حوافّه الجنوبية المتطلّعة إلى بلاد السودان (Bissuel, 1891 : 107).

أصبح كلّ من بارث Barth وكاييه Caillié بطليّ اختراق الصحراء في القرن 19 م مثلاً وقدوةً لعشرات المستكشفين الفرنسيين، يحيون ذكرى رحلتيّهما، ويستلهمون منها المواصفات التي يجب أن يتحلّى بها المستكشفُ المعوّلُ على السير على رمال الصحراء

المتحرّكة الغادرة. من تلك الخصال: روح شُجاعة، ثقة تامّة بالنفس، إرادة شرسة، ثبات في المواقف القاتلة! (Demoulin, 1951: 205).

لكن الاهتمام الفعلي بهذا المجال جاء عقب احتلال منافذ الإقليم، الأزواد جنوباً، الهقار شرقاً، وإثر إخضاع منطقتي تيدكلت وتوات مطلع القرن العشرين واستقرار أوضاعهما. استذكر الفرنسيون سالف الدراسات والإشارات المحيلة علمياً إلى هذا المجال، وإن كانوا ليسوا قديمي عهد بتلكم البعثات الاستكشافية، التي كان منطلقها علمياً بغرض استكشاف حواضر الصحراء الجزائرية، ومعرفة خصائصها الجيولوجية، ثم ما لبثت أن تحولت إلى حملات عسكرية توسعية شرسة، كما هو الشأن في بعثة فلانمون Flamand على تادمايت وتيدكلت سنة 1899م (مرجاني، 2019: 55).

كان لتنزروفت نصيب من ذلك التوجّه الاستعماري، ففي دراسة تعود إلى سنة 1905م وصفت تنزروفت من طرف غوتيه Gautier بأنها "من المناطق الأكثر فظاعةً في العالم، مساحات مسطحة شاسعة، خالية تماماً من الغطاء النباتي والماء" Gautier, (1905: 587). أما شودو Chudeau فقد اعتبرها "عين الصحراء الحقيقية، رمز الغياب التام للمياه والمراعي" (Chudeau, 1908: 45). وهذا ديمولان Demoulin يؤكد أن أيّ سيرٍ محتمل في رقّ تنزروفت سيتمّ حتماً ببُطء، ويستعرض معيقاته وصعوباته "الفضيعة" على النحو التفصيلي التالي: بحرٌّ من الكثبان الرملية، أبعاد ومسافات ضخمة للغاية، ريح بلا نهاية، مقاطع متشابهة على مدّ البصر، تعرّجات وانحدارات متتالية، نقاط ماء منعومة، شتاء بارد وصيف حارق.... (Demoulin, 1951: 205).

رغم ذلك كانت هذه المنطقة الجافة بمثابة الجدار الطبيعي الفاصل بين جانبيين لطالما رغب الفرنسيون في الربط بينهما ولو معنوياً على الأقل، جانب "الصحراء الفرنسية الجديدة" وجانب "الصحراء الفرنسية الإفريقية"، بعد إخضاع تنبكتو لسيطرتهم سنة 1894م، أو على رأي غوتيه Gautier: "الصحراء السودانية الخاضعة لتأثير تنبكتو" (Gautier, 1903: 364). لذا ثبت لدى بعض المستكشفين الفرنسيين أن مشقة قطع

صحراء تنزروفت مهما بلغت فإنَّها ستهون لاحقاً، باعتبارها ترْبُصاً حقيقياً يُمْكِن من اجتياز بقية أنحاء أقاصي الصحارى الجزائرية بكلِّ يُسر (Lhote, 1937 : 37).

على ذكر النفوذ العسكري الفرنسي بإقليم أزواد المتاخم لتنزروفت؛ فقد زحفت القوات الفرنسية شمالاً بعد استيلائها على تنبكتو، وتمكنت سرية فرنسية من احتلال تاودني سنة 1912م، ولكن تلك السرية سُحبت بسبب ظروف المنطقة الصعبة، وما لحق أفرادها من بؤس شديد، إذ تقع تاودني في قلب منطقة من أكثر مناطق الأرض رعباً لوحشتها! وأوكلت مهمة مراقبة المملحة إلى قوات المهاري التابعة للفرنسيين (مارتي، 1985: 99).

أحدثت الرغبة الفرنسية الجامحة لاستكشاف خيرات الصحراء بعد الحرب العالمية الأولى نوعاً من التكالب في الدراسات النظرية وكذا التطبيقية المخصَّصة لهذا المجال المجهول والواعد، استهدفت في بادئ الأمر أغوار الصحراء وأعماقها، بحثاً عن خنادق وأحواض المياه الجوفية الضخمة. ذلك ما عبَّر عنه الجغرافي غوتيه Émile-Félix Gautier حين أكَّد أنَّ منعى الدراسات الطبوغرافية في هذا الشأن في تصاعد، وبأنَّ أفاقاً جديدة تبشِّر بنتائج مذهلة في الجنوب الغربي الجزائري كما الجنوب الشرقي : Gautier, 1926 (42). والهدف من ذلك طبعاً هو إقامة سلسلة من الآبار الارتوازية العميقة، تساهم في ضمان الدعم اللوجستي للبعثات العلمية الفرنسية.

في سنة 1922م تمكَّنت قافلة من السيارات الفرنسية المخصَّصة من عبور الصحراء الكبرى لأول مرة (أنظر التعليق رقم: 3)، انطلقت من أقصى شمال الجزائر، ووصلت إلى مدينة تنبكتو، بعد رحلة شاقة استمرَّت مدة شهر (مرجاني، 2019: 57). لكن لم يتم ذلك دون متاعب، فمحركات السيارات لا توائم الصحراء، لارتفاع الحرارة وهبوب الرياح الحاملة للأتربة باستمرار.

في ذلك الإطار اندرجت الأبحاث العلمية الرائدة للمستكشف الجيولوجي تيودور مونو T. Monod، صاحب السبق في براءات الاكتشاف الصحراوي. كان أول ارتباط علمي

لمونو بصحراء تنزروفت سنة 1934م من جهة الروافد الجنوبية لهذا الإقليم، في ممالح تغازة وتاودني التاريخية، بفضل قافلة متكونة من ثلاثة آلاف من الإبل (Dehéraïn,) 178 : 1926 وذلك على خطى سلفه رينيه كاييه René Caillié الذي زار تلك الأحواض الملحية سنة 1828م. علماً أنَّ الرابط الطبيعي بين هذه الممالح ورقّ تنزروفت هو عرق شاش الرملي، الذي سلكه مونو أيضاً لاحقاً.

4. تهيئة مسار تنزروفت للاستكشاف والاستغلال

1.4 مراحل التهيئة الاستعمارية لتنزروفت:

تنزروفت تلك الأرض الموحشة المقفرة؛ عرفت القوافل التجارية العامرة بالسلع، وعرفت رحلتي "الربيع والخريف"، قبل مجيء الفرنسيين للمنطقة بقرونٍ سحيقة. كانت الممرّ الحتمي لعبور قافلتين كبيرتين مشكّلتين من 10 آلاف جمل، ما بين حاضرتي توات وتنبكتو، إحداهما في شهر ماي والثانية في شهر أكتوبر من كل سنة : Sabatier, 1891 (192).

كان العزم لدى المستكشفين الفرنسيين في أول الأمر على اتّخاذ منطقة أقبلي (جنوبي أولف) بوابةً للولوج إلى حواضر إفريقيا عبر صحراء تنزروفت، مثلما كان الأمر قديماً مع ركب الحج من بلاد التكرور وقوافل سلع بلاد السودان، ذاك لأن بلدة أقبلي ينتهي ويلتقي عندها المساران الطوليّان التقليديان: المار من القليعة (المنيعة) من جهة، والمار من توات من جهة أخرى (Bissuel, 1891 : 103).

في سنة 1923م . وبعد نجاح رحلة السيارات الأولى إلى عين صالح . كان التفكير الجدّي في قطع معبر تنزروفت، باستخدام سيارات سيتروين Citroën مجنزرة، قبل أن تتمّ العودة لاحقاً لاستخدام السيارة ذات الإطارات، ذلك ما تمّ في رحلة استكشافية بقيادة جورج ورينيه إستيان Georges et René Estienne ومن تنظيم شركة CGT، التي استخدمت مجموعة من سيارات سيتروين، انطلقت من كولومب بشار Colomb-Béchar، مروراً برقان مدخل تنزروفت، ومن رقان اجتازت تنزروفت حتى منطقة غاو بمالي، ثم

اتجهت البعثة شرقاً نحو تشاد. وفي سنة 1925م تمكنت بعثة غراديس Gradis من عبور طريق رقّ تنزروفت الترابية مرة أخرى، لكن هذه المرة من طريق أوالن أسفل أقبلي، وصولاً إلى تساليت بمالي، على متن سيارات من ستّ عجلات، من طراز رينو Renault (فيرون، 1993: 384).

في سنوات الثلاثينات من القرن العشرين؛ سعت الإدارة الفرنسية إلى تهيئة أطول طريقين عابرين للصحراء الوسطى، رابطين إيّاها ببلاد السودان (مالي والنيجر). المسار الأول هو طريق الهقار المنطلق من المنيعة (El-Goléa) مروراً بعين صالح وتامنغست، وصولاً إلى زندرونيامي، والثاني هو مسار تنزروفت الموازي للأول، المنطلق من كولومب بشار مروراً برقان وبيدون 5 (Bidon5)، وصولاً إلى غاو المالية (أنظر الخريطة ضمن الملاحق). ولضمان الربط بين هذين المسارين الهامين تم إنشاء مجموعة من المقاطع العرضية، على غرار: عين صالح . أدرار، تامنغست . كيدال. بلغ إجمالي المسارات الطولية والعرضية المنجزة حوالي 10000 كم من الطرق الترابية (pistes)، اعتماداً على التهيئة الطبيعية للمرات في المقاطع الشاسعة، وبوضع صفين متوازيين من الحصى في ما عداها (Demoulin, 1939 : 484).

أصبح مسار "كولومب بشار . غاو المالية" الحامل لمقطع تنزروفت يُعرف بالطريق الإمبراطوري (Fitte, 1946 : 195). تمّ تدعيم هذا الطريق تباعاً، من خلال تجهيز نقطة بيدون 5 (Bidon 5) المعلمية، الواقعة تقريباً في منتصف الطريق بين رقان وتساليت المالية، وذلك بتوفير محطة للدعم بالوقود للشاحنات المخصصة لرواد البعثات الاستكشافية، وإنجاز مدرج للطائرات الصغيرة، وكذا وضع برج أو منارة عالية لمراقبة الطيران، من أجل توفير الدعم المطلوب لقوافل الشاحنات المزمع إرسالها نحو مالي والنيجر (Dehérain, 1926 : 178).

في السياق ذاته المؤدّي إلى تذليل صعوبات ومشاق عبور تنزروفت؛ قامت شركة فرنسية بتجهيز مركز تصليح الأعطال التقنية في رقان أقصى جنوب توات، وكذا تثبيت

محطة راديو للاتصال السلبي، يضمن الإرسال والاستقبال، وهذا فضلاً عن تحيين المسارات التقليدية التي كانت تسلكها القوافل التجارية، المفضية إلى إقليمي تساليت وتابنكور "السودانيين" (Arnaud, 1927 : 478). مما سيجتهد الفرنسيون إمكانية تجسيد حلم ربط شمال إفريقيا بالصحراء الكبرى، وفرصاً جديدة للتوسع.

بعد حملات التوغل نحو أقصى الجنوب، وطيلة اثني عشر سنة تقريباً من الاستكشاف المتتالي، تغير مفهوم "عبور تنزروفت" لدى المنظرين والمستكشفين الفرنسيين، إذ لم تعد النظرة الاستعمارية لهذا المجال نمطية موهلة في إلحاق أوصاف: الخوف، العطش، الموت.... بصحرائه، بل أصبحت تثير اهتمام المغامرين المتجربين على اجتيازه، وحتى الرياضيين المتسابقين دونما أحكام مسبقة، في ما يشبه "الكشف السياحي" لهذا الإقليم! (Godlewski, 1942: 209).

2.4 تنزروفت.... لنقل السلع والبضائع؟

صحيح أنّ عبور الصحراء الموحشة عبر طريق تنزروفت لم يكن متاحاً في أول الأمر للمنقولات التجارية واللوجيستية الفرنسية، وحتى العسكرية البحتة، مثلما هو الشأن بالنسبة لمسلك عين صالح نحو الهقار، غير أنّ الضرورة الأمنية المرتبطة بحذر البعثات الفرنسية من ردّ فعل قبائل التوارق، وكذا حسابات الربحية التجارية، ستجعل من ذلك الأمر ممكناً. إنّه السير على خطى القوافل التجارية الشائع أمرها، المحافظة على دوريتها في أزمنة سابقة، فكلّ ما يتطلبه الأمر هو تطوير أداء بعض نقاط الماء القديمة بشكل أفضل (Chudeau, 1908 : 45). ذلك ما يمكن أن يُتيح المسلك المنطلق من أقبلي المتقاطع مع تنزروفت لاحقاً، حيث يوقّر بركاً صغيرة من الماء في منهل أولان (أو إيولان)، وفي امتدادات بعض الأودية القادمة من الشرق (Bissuel, 1891 : 104).

استمر حجم الشحنات المنقولة عبر البرّ، انطلاقاً من كولومب بشار وصولاً إلى غاو بمالي، مروراً بتنزروفت، في معدلات ثابتة لعدة سنوات، إذ عادل متوسطه مقدار 1000 طن سنوياً، في مسار صعب شاق يبلغ طوله 1990 كلم تقريباً (Galibert, 1958 : 161).

فمثلا في سنة 1940م بأكملها نُقِلَ عبر هذه الطريق 997 طنا من التمور والنبيد والطرود، و994 طنا من الجهة المعاكسة. رغم استخدام شاحنات تزيد حمولتها عن 25 طنا، بإمكانها أن تقطع مسافة 30 كلم في الساعة على طول المسالك الرديئة مثل طريق تنزروفت، ومع ذلك ظلت حركة النقل البري ضئيلة نسبياً (فيرون، 1993: 385).

بخصوص النقل الجوي الذي عرفته أجواء الصحراء الكبرى متأخراً نسبياً فقد تضاعف حجم الشحنات المنقولة من الجزائر إلى مستعمرات فرنسا جنوبي الصحراء بين سنتي 1932 و1937م من 07 أطنان إلى 14 طناً (Demoulin, 1939: 493). كما عمدت الإدارة الاستعمارية إلى إرفاق الأبراج والمواقع العسكرية في بني عباس، أولف، رقان وأدرار بمدارج مهيأة وبمسارات هبوط وإقلاع صلبة، هي الأطول في شمال إفريقيا، تسمح باستقبال طائرات من طرازي: DC-3 و JU-52 لمواكبة حركة النقل والدعم اللوجستي لعمليات التنقيب عن الثروات الطبيعية، فأصبح بذلك مطار أدرار العسكري من أحدث المطارات المنجزة في إفريقيا خلال تلك الحقبة؟ (Galibert, 1958: 172). أمّا نقطة بيدون 05 الواقعة في عمق تنزروفت فقد تمّ تزويدها سنة 1934م بمحطة إمداد بوقود الطائرات العسكرية، تابعة لشركة شال Shell، بعد أن كانت هذه النقطة تقتصر على خدمات التموين للسيارات فقط، وقد استفادت منها الرحلة الجوية التي حملت الجنرال فيومين Vuillemin (Société Shell, 1934: 46).

صحيح أنّ المسارات قد أصبحت أكثر تهيئة ومراقبة من ذي قبل، غير أنّ حجم السلع المحمولة لم يساير ذلك التغير الحاصل، فشبكة النقل الأجنبية الدخيلة لم تتمكن من محو آثار مسارات القوافل والإبل. يمكنها أن تكون عوناً على معرفة صحراء تنزروفت والصحراء الكبرى عموماً، لكن خارج نطاق طرق القوافل.... لن تنجح في الحلول محلّ الإبل (فيرون، 1993: 384).

5. أبعاد الدراسات الاستكشافية الفرنسية

1.5 استكشاف جغرافية وجيولوجية تنزروفت:

بما أنَّ منطقة رقان هي المدخل الطبيعي لصحراء تنزروفت، فقد كانت تربتها مقصداً لإجراء بعض الدراسات والأبحاث، قبل ولوج السهل. في طليعة تلك الأبحاث ما نشرته جمعية ما قبل التاريخ الفرنسية Société Préhistorique Française سنة 1928م، بعد أخذ عينة من النوى أو الحصى وإخضاعها لتقنيات المسح الأثري، في محاولة لمقارنتها مع تلك الموجودة في صعيد مصر، مع القيام بالتصوير الجيولوجي المعمق من مختلف الأبعاد للعينات المجموعة في رقان (Fitte, 1947 : 305) والهدف من ذلك هو الخروج بنتائج قد توضّح بعض المعطيات الأولية لخصوصيات تنزروفت الطبيعية. مثّلت تنزروفت الفضاء الشاسع من الحجارة الجيرية والرملية المثير لاهتمام الفرنسيين من ناحية الخصائص الطبيعية، لذا كان يُشار إليها في بعض الكتابات الاستعمارية بأنها "جزء من الحوض الكبير للصحراء الفرنسية"! (Gautier, 1926 : 43). ومردّد ذلك الوصف هو كونها محاطة بسلاسل جبلية وهضاب صخرية، في حين تختفي من أرجائها واحات النخيل تماماً. في مطلع سنة 1936م قام مونو Monod برحلة علمية، تمّت في أغلب محطاتها سيراً على الأقدام، قطع من خلالها صحراء تنزروفت عرضياً، أي من الغرب نحو الشرق، منطلقاً من تيندوف، وفي حافة تنزروفت الغربية Dagouber التقى برفيق الرحلة الملازم براندستيتير Brandstetter على رأس فرقة من البدو الرحل المتعاونين. ومع حلول الشتاء اصطحب مونو مساعدين آخرين، وقاموا بمسح حوالي خمسمائة كيلومتر من هذا السهل القاحل، واصفاً إياه بأنه: "... على مدّ البصر؛ أرضٌ من الرمال الخشنة أو من الحصى، ريحٌ بلا حدود من جميع الجهات" (Dehérain, 1926 : 178).

مع حلول الربيع من سنة 1936م عاد مونو Monod من عالم الصحراء الفسيح إلى العمارة من جهة جنوب توات، وصل إلى أدرار محمّلاً بالمقتنيات والدفاتر والرسومات والصور الفوتوغرافية للنقوش الصخرية التي تعود إلى فترة ما قبل التاريخ وإلى أولى

العصور التاريخية (179 : 1926, Dehérain). كما قام بمقارنة ما توصّل إليه مع ملاحظات الإداريين السابقين، ومع ما جمعه ضباط فرق المهاري.

إضافةً إلى أعمال مونو Monod السابقة؛ قام المستكشف لهوت Lhote سنة 1939م باستطلاع كتلة صخرية واقعة في مثلث تشابك المقاطع الثلاثة: أدرار إيفوغاس، أدرار أهنت، وتنزروفت، وجمع العديد من القطع الحجرية ذات الوجوه، التي تعود إلى العصر الحجري القديم (141 : 1941, Lhote). أيضاً العديد من الدراسات الجيولوجية والطبوغرافية لصحراء تنزروفت استفادت من الملاحظات القيّمة التي جمعها المستكشف الفرنكوروسي نيكولاس مانشيكوف N. Menchikoff سنة 1945م.

بعد ذلك بسنة واحدة؛ وفي إطار مواصلة عملية المسح الجيولوجي للمنطقة، زار العالم بول فيت Paul Fitte سهل تنزروفت في مهمة جديدة، للتنقيب في بقايا ما قبل التاريخ. على بُعد 17 كلم فقط من جنوب رقان تم العثور على وديعة أثرية هامة، تعود إلى العصر الحجري المتوسط (الميزوليتي)، من صنف Sébilien III. بعد ذلك الاكتشاف الأولي بشهور أثبت الدكتور دورفيل Durville بمعية المستكشف فيجنارد Vignard ما وصل إليه زميلهما، بمقارنة عينة أخرى (298 : 1947, Fitte). انتهى فيت Fitte إلى فرقة استطلاع مجهزة، أوكلت إليها مهمة إجراء مسح طبوغرافي شامل لمقطع تنزروفت، انطلاقاً من برج رقان العسكري. عبرت الفرقة تنزروفت من شمالها إلى جنوبها، واستفادت من المنارة العلمية في بيدون 05 من أجل التزود بالماء والراحة، ووصلت إلى تساليت من بلاد السودان (شمال مالي). ما ميّز هذه المهمة الجيولوجية بامتياز هو تركيز الكاشطات من نوع Quina شديدة الانحدار بكميات كبيرة، على مسافة 100 كلم جنوب واحة تاوريرت برقان (195 : 1946, Fitte).

تكرّر ذلك في المقطع المتجه صوب تنزروفت انطلاقاً من قصر زاوية الرقاني، حيث أمكن للمستكشف فيت Fitte ورفاقه التعرف على بقايا أثرية في مساحة مسح بيضاوية الشكل قدّرت بحوالي 100م²، ضمّت 1066 قطعة، وشملت عيّينات عن: رماد أسود

لحطام عظمي وشظايا بيض النعام وصوان أسود وكوارتزيت (حجر رملي)، أُكِّدَت جميعُها نظرية النشاط البشري السائد بالمنطقة في العصر الحجري الحديث، على غرار الظروف السائدة على خط الواحات (Fitte, 1954 : 368).

لقد أُكِّدَ المستكشف فيرون Furon أنَّ الشَّقَّ المتشكِّل من إقليم تنزروفت شمالاً ووادي تلمسي جنوباً أو "المضيق السوداني" هو الذي مَكَّن من ربط البحر المتوسط بخليج غانة والمحيط الأطلسي في العصرين الكريتاسي (الطباشيري) والإيوسين. ذلك ما أثبتته الحفر الجيولوجي في موضع بيدون 5 (Bidon5) بتنزروفت سنة 1952م، والذي أفرز عن 500 متر من الرواسب البحرية والبحرية الساحلية، والتي يُرجَّح أنَّها تنتمي إلى العهد السينوني من العصر الطباشيري، ثم في سنة 1956م تمَّ رصد بقعة تشمل 1500 متر من الرواسب المماثلة في أقصى تنزروفت (فيرون، 1993: 229).

2.5 الكشف الهيدروليكي لحوض تنزروفت:

بخصوص التركيبة الهيدروجيولوجية لتنزروفت استبعد مونو Monod أن يكون وادي مسعود المتصل بوادي الساوردة قد غدَّى الحوض المائي لإقليم تنزروفت من الجهة الشمالية (أنظر التعليق رقم: 4)، أو أن يكون وادي تامنغست بدوره قد غدَّى هذا الحوض من الجهة الشرقية، وقد بنى نظريته تلك على أساس عدم العثور على رواسب المياه العذبة في المنطقة (Monod, 1938 : 07). وإن كان مونو قد ميَّز في مناسبات أخرى بين الطبيعة الصخرية للناحية الشرقية من إقليم تنزروفت المحاذية لحافة الهقار، إذا ما قارناها بنظيرتها الغربية، التي يغلب عليها الطابع الرملي، وتتداخل مع عرق شاش، مُحيلًا ذلك التباين إلى عامل هيدروجيولوجي ذي صلة بفيضان وادي تامنغست : Monod, 1938 (10).

خالفَ مونو Monod بذلك الأبحاث النظرية العلمية للباحث فيليب روسو P. Russo في دراسته لأودية شمال الصحراء، حيث راهنَ هذا الأخير على وجود مصاطب للأودية في الأزمنة الجيولوجية القديمة، ربطت وادي الساوردة ووادي مسعود بانحدار

تنزروفت. ولاحظ كذلك وجود انحدار لأودية الهقار باتجاه منطقة تنزروفت، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، إلى إمكانية ارتباط بعض روافد نهر النيجر مثل وادي تامندوري ووادي تاكراتيبي بالحوض المائي المتواري تحت تنزروفت (Russo, 1923 : 119). ما يُعزِّد ذلك الاعتقاد القائل بالعلاقة الزمنية بين حافة تنزروفت من الجهة الشرقية ووادي تامنغست وكذا وادي تيميساو الذي يتدفق من الغرب نحو الشرق، هو وجود ثلاثة آبار عامرة، ساهمت في تيسير عملية التنقل في صحراء تنزروفت، هي: تيميساو، عين عزاوة، وتمادة (Lhote, 1941 : 141).

لا توجد آبار ارتوازية طبيعية أو مُنَجَّزة في رِقِّ تنزروفت، رغم وجود طبقة حاملة للمياه، لذلك تم إجراء أول محاولة للحفر من قبل شركة سكة حديد البحر المتوسط . النيجر Méditerranée-Niger (المعروفة اختصاراً باسم Mer-Niger) في النقطة العلمية Bidon5 في شتاء سنة 1942م، على مسافة قريبة من النقطة الكيلومترية 500 جنوب رقان، وقد وقف الحفر على عمق 160 متراً في رواسب البحيرات الساحلية والتكوينات الجيرية. وفي سنة 1945م تجددت المحاولات، لكنَّ الحفر توقف على عمق 549 متراً لأسباب مادية تقنية (Devors, 1947 : 230).

جدير بالذكر أنَّ هذه المنطقة الصحراوية كانت في عصور سابقة مسلكاً تجارياً محتوياً على عدد قليل من الآبار التقليدية، حيث ألجأت الحاجة إلى السفر الطويل العابرين إلى حفرها عبر محطات معدودة، بدءاً من زاوية الرقاني شمالاً : Fitte, 1954 : (372). وقد استفادت أركاب الحج . على قِلَّتْها . أثناء اجتياز تنزروفت من وجود آبار مُعلَّمة في مداخل الإقليم من الجهتين، يذكر منها الرحالة البرتلي سنة 1790م بئر أشوراط وبئر تنضضين جنوباً، وهما آخر المناهل من جهة المبروك بأزواد، وبئر أولن شمالاً، الذي تستريح عنده القوافل من وعثاء قطع مفازة تنزروفت، ثم تُشْرِف على جنوب توات، من بوابة قصري تاويريرت وزاوية الرقاني، أو من بوابة قصور أقبلي بتيدكلت. (البرتلي الولاتي، 2021 : 50).

6. تنزروفت.... ما بعد الاستكشاف!

اعترف فيرون Furon أحد أشهر المستكشفين بأن إدارة المناجم في حكومة إفريقيا الغربية الفرنسية استخدمت عدداً من الباحثين الجيولوجيين ليشرعوا في رسم خرائط جيولوجية على نحوٍ منظّمٍ لمنخفضات ومرتفعات الصحراء الكبرى (بما فيها إقليم تنزروفت)، في محاولة لاستغلال الموارد المعدنية والطاقوية الهائلة، مضيفاً بأنهم لم ينتهجوا الأساليب الحديثة الملائمة لظروف الصحراء في الكشف الجيولوجي والتعديني سوى بعد الحرب العالمية الثانية! (فيرون، 1993: 305).

تراكم كمّ هائل من الدراسات النظرية بشأن إنجاز مشروع السكة الحديدية العابر للصحراء، بما فيها إقليم تنزروفت، وأوكلت لشركة Mer-Niger مهمة الدراسة والإنجاز، وكان ذلك المشروع في نظر المنظرين القوة التي تكسر حاجز الصحراء الرهيب، وتساهم في دمج أسواق المستعمرات الفرنسية بين ضفتيها، وتحقيق مشروع "فكرة الإمبراطورية الإفريقية الفرنسية" (Demoulin, 1939: 493). غير أنّ هذا الحلم الفرنسي ظلّ يراوح مكانه، بسبب المعوقات الطبيعية التي تحول دون تجسيده من جهة، وبسبب كلفته العالية من جهة أخرى.

ما كان يأمله المستكشفون الفرنسيون وعلى رأسهم مونود Monod عاشق الصحراء . كما يسمّى . هو أن تبادر الحكومة العامة للمستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا A.O.F إلى تنظيم رحلات علمية إضافية في المستقبل القريب إلى فضاء تنزروفت المترامي، وما يقع جنوبه من أراضٍ صحراوية، تكون أكثر عدّة وتنظيماً ومنهجاً من البعثات السابقة (Monod, 1938: 09).

لعلّ ذلك الأمل كان مسوّغاً للتفكير في أن تكون صحراء تنزروفت محلّ تجارب نووية فرنسية، بحجة أنّه لا ينبغي الخوف من تداعيات انفجار نووي في رقّ تنزروفت، لأنّ الخبراء الفرنسيين أكّدوا على إمكانية حدوث ذلك بكلّ تمكّن ودقة! (Manue, 1959: 168). وما دعّم الأطماع الاستعمارية الفرنسية في أن تكون تنزروفت أرضاً لتجسيد

أحلامهم النووية هو اكتشاف كميات كبيرة من اليورانيوم في هذه الصحراء، لكنّ الجزائر المستقلة تأبى أن تأخذ البعثات العلمية مسحاً استعمارية استغلالية، في حين تفسح مجالها للدراسات العلمية الصرفة الرصينة (أنظر التعليق رقم: 5).

إنّ مئات المكوّنات والأجزاء من اللقى الأثرية التي أتاحها رقّ تنزروفت للباحثين الفرنسيين: عظام، حصى، سيراميك، كاشطات، شظايا، قواقع، أصداف، قشور بيض نعام، ريش، شفرات، نوى، عجلات طحن.... كشفت جميعها حقيقةً مُدهشة، وهي أنّ تنزروفت . كما الصحراء الجزائرية الشرقية . كانت مأهولةً بالسكان خلال العصر الحجري الحديث، ثم تمت عملية زحزحة سكانها البدائيين نحو الجنوب، بسبب الاختفاء التدريجي لنقاط المياه (Fitte, 1946 : 196) لكن ماذا عن هوية أولئك الظاعنين المضطرين للانسحاب من ذلك المجال في آخر المطاف، قد تكون قبائل التوارق الصحراوية من بين الساكنين الشاغلين الأوائل لوديانه، فاللقى الأثرية من الفخار المنسوبة لهؤلاء المعمرين خير شاهد على ذلك (Chudeau, 1908 : 52).

خاتمة:

بناءً على ما أوردناه من معطيات ومقاربات تاريخية في هذه الورقة البحثية؛ يمكننا الاستنتاج بأنّ المبادرات الاستعمارية الموجّهة لاستكشاف إقليم تنزروفت اعتمدت على دراسات ومكتآت معرفية سابقة، تمّ جمعها على مدى سنوات من البحث والتحري، شملت الفضاء الجغرافي والحضاري المحيط بهذا الإقليم أولاً. كما أنّ إعداد وتجهيز البعثات الاستكشافية لم يخرج عن نطاق تلك المعلومات.

لقد بذل الفرنسيون جهوداً مضيئة من أجل تحقيق الأهداف المسطرة من عملية الكشف العلمي، والتي غلبَ فيها الطابع الجيولوجي على ما سواه. إنّ تلكم الطلائع الاستكشافية تبدو علمية محضة في ظاهرها، لكن الغرض الاستعماري الإمبريالي الاستغلالي غير خفي.... رغم ذلك؛ لم تنجح جميع الوسائل والمعدات المجلوبة في تغيير مفهوم التمرکز البشري عن الصحراء، لقد ظلّت تنزروفت القاسية مركزَ نشاطٍ إنساني حيوي متجدّد عبر الأزمان، في حدود المتاح من

الإمكانات! إنَّ تنزروفت Tanezrouft الإقليم اللغز لم يكشف عن أوراقه كاملة، لا زال بحاجة إلى مزيد البحث الجاد والتحري الدقيق.

التعليقات والشروح:

1. وادي مسعود: مصدره الأول هو وادي قير، ثم يلتقي مع وادي زوزفانة، مشكّلين رافداً جديداً منطلقاً من إقلي، هو وادي الساوره الذي يجري نحو الجنوب إلى مشارف إقليم توات، حيث يحمل اسمه الأخير "وادي مسعود"، وعندما يصل قصور تاسفاوت . جنوب غرب تمنطيط . يكون سبخة كبيرة، وبعد اختراقه لهذه السبخة يتجه نحو مقاطعة رقان غائراً في سهل (رق) تنزروفت (فرج، 1977: 02).

2. Bordj Le Prieur: هو الاسم الاستعماري لمدينة برج باجي مختار الحالية، الواقعة على مسافة 600 كلم جنوبي مدينة رقان، والاسم نسبة لضابط المهاري الفرنسي Louis Le Prieur الذي تمكّن من حفر بئر ارتوازية، أصبحت مركز جذب للسكان البدو الرحل.

3. تعود التجارب الأولى للسيارات في الصحراء إلى سنة 1916م، حينما وصلت عربة بخارية إلى عين صالح، أعقبها وصول خمس سيارات أخرى في العام الموالي، وفي سنة 1920م كانت أول رحلة على طريق ترابية مهيأة من كولومب بشار إلى عين صالح، بمرافقة جوية لطائرة حربية! (فيرون، 1993: 383).

4. سجّل وادي مسعود حالات كثيرة من السيول، غمرت أجزاء عديدة من القصور والواحات، ووصلت مياهه في سنة 1709م إلى غاية رقان وما حوالها، أي مدخل سهل تنزروفت (Saffroy, SA: 15).

5. استمرت الدراسات الجيولوجية حول رقّ تنزروفت بعد الاستقلال، من لدن أوروبيين، منها:

• Mateu, J. (1966). Un vase néolithique d'Anou Oua Lelioua (Erg d'Admer)

• , Hegla. (1982). A contribution to the aeolian history of the TanezrouftBesler

• Gaussen, Jean, Michel. (1998). Vestiges préhistoriques dans le Sud Tanezrouft

قائمة المصادر والمراجع:

01. بلّيل، رشيد. (2008). قصور قورارا وأولياؤها الصالحون في المآثور الشفهي والمناقب والأخبار المحلية،

تر: عبد الحميد بورايو، الجزائر: منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان.

02. البُرتلي، الولاتي. (2021). أقدم رحلة شنقيطية مدونة: الرحلة المباركة للحاج محمد البشير بن أبي بكر البُرتلي الولاتي إلى الحرمين الشريفين. ط1. ليدن: مطبعة بريل.

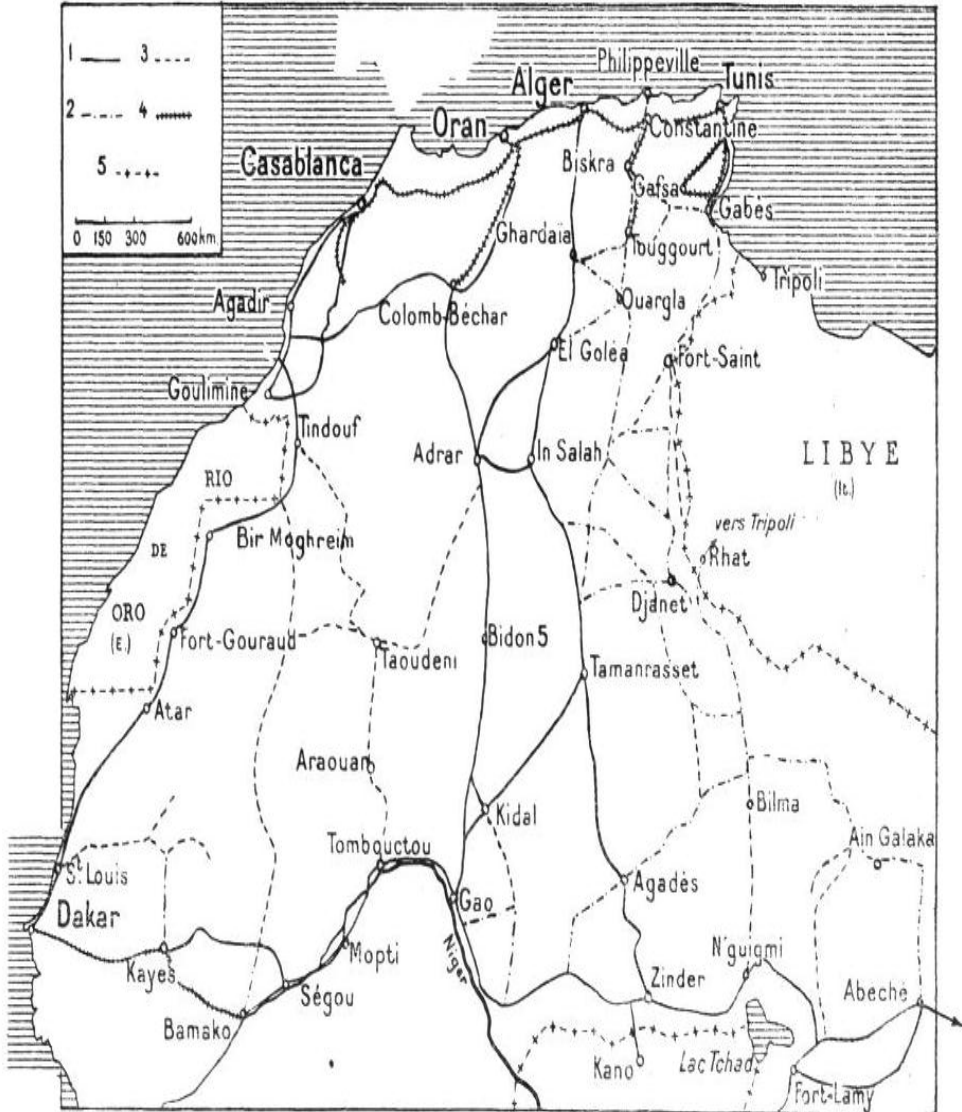
03. اليُفراني، الصغير. (1888). نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تح: هوداس، انجي: مطبعة بردين.

04. مارتى، بول. البرابيش بنو حسان، (1985). ط1، تعريب وتعليق: محمد محمود ولد ودادي. دمشق: مطبعة زيد بن ثابت.

05. مرجاني، عبد القادر. (2020/2019). السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م. أطروحة دكتوراه علوم، جامعة الجيلالي ليايس، سيدي بلعباس.

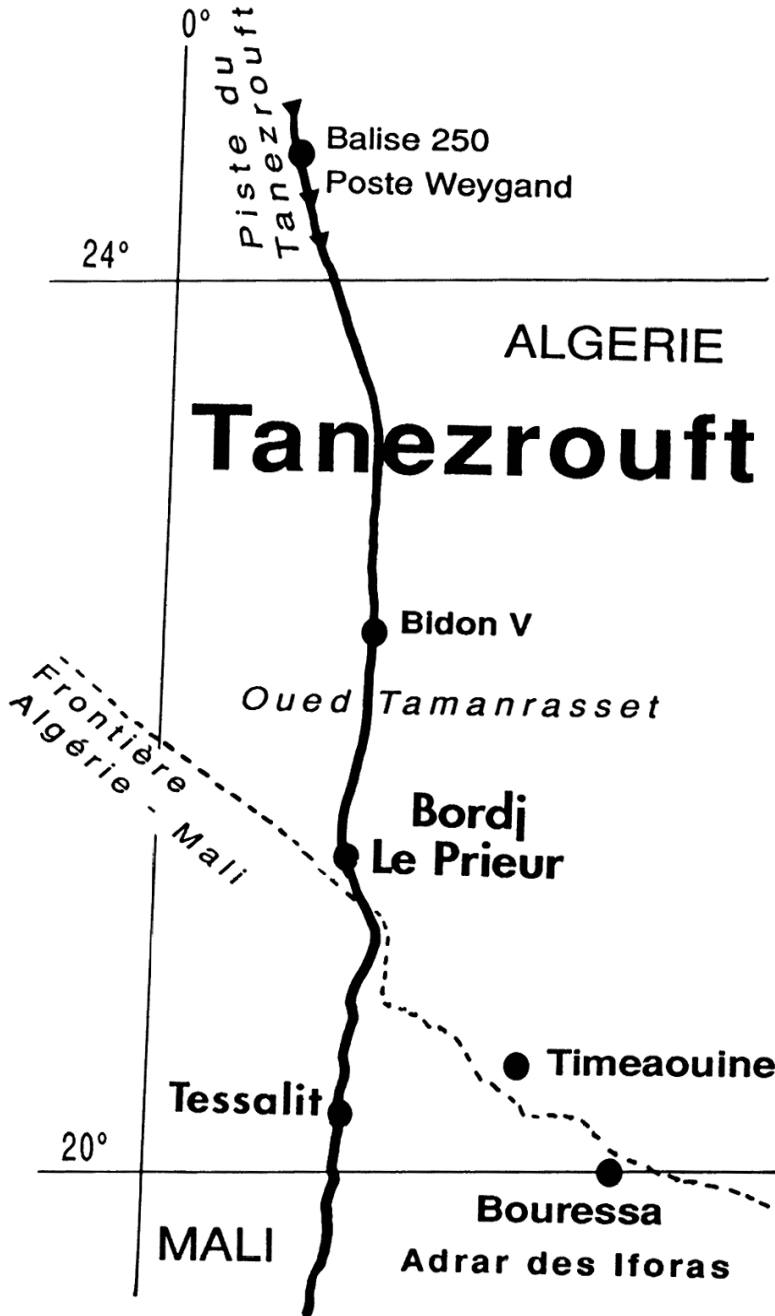
- 06- فيرون، ريمون. (1993). *الصحراء الكبرى*، تر: جمال الدين الدناصوري، القاهرة: مؤسسة سجل العرب.
- 07- فرج، محمود فرج. (1977). *إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين*. أطروحة دكتوراه الطور الثالث، جامعة الجزائر. الجزائر.
- 8- Arnaud, Georges. (1927). «L'automobile au Sahara». *Annales de Géographie*, t. 36, n: 203, pp: 476-479.
- 9- Bissuel, Henri. (1891). *Le Sahara français: conférence sur les questions sahariennes, faite les 21 et 31 mars 1891*. Alger: Adolphe Jourdan, Libraire-éditeur.
- 10- Chudeau, René. «Etudes sur le Sahara et le Soudan». *Annales de Géographie*, t. 17, n: 91. pp: 34-55.
- 11- Devors , P. (1947). *Le Touat étude géographique et médicale*. Alger: Archives de l'institut pasteur d'Algerie.
- 12- Dehéraïn, Henri. (1940). «Récentes découvertes historiques et préhistoriques au Sahara occidental». *Journal des savants*. pp: 173-179.
- 13- Demoulin, François. (1953). «Un centenaire saharien : l'exploration de Barth» . *Annales de Géographie*, t. 62, n: 331, pp: 204- 209.
- 14- Demoulin, F. (1939). «Les communications sahariennes. Voies d'empire». *Annales de Géographie*, t. 48, n: 275-276, pp: 481- 493.
- 15- Fitte, Paul. (1946). «Gisements préhistoriques entre le Sud Algérien et le Soudan», *Bulletin de la Société préhistorique de France*, tome 43, n: 5-6, pp. 192-196.
- 16- Fitte, Paul et Durville, Gaston et Vignard, Ed. (1947). «Une station du Sébilien III, à Reggan-Tahourirt, dans le Tanezrouft, Sahara central». *Bulletin de la Société préhistorique de France*, tome 44, n:9-10, pp: 298-313.
- 17- Fitte , Paul. (1954). «Le gisement néolithique de la Zaouiet de Reggane». *Bulletin de la Société préhistorique de France*, tome 51, n :7, pp: 368-373.
- 18- Gautier, Émile-Félix. (1908). *Missions au Sahara. Tome I, Sahara Algérien*, Paris: librairie Armand Colin.
- 19- Gautier, Emile-Félix. (1903). «Lettre sur le Mouydir et l'Ahnet». *Annales de Géographie*, t. 12, n: 64. pp: 363-365.
- 20- Gautier E. F. (1905). «Exposé provisoire des résultats ethnographiques d'un voyage d'études transsaharien». *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, 49^e année, N: 5, pp: 585-592.
- 21- Gautier E. F. (1926). «Perspectives nouvelles au Sahara». *Bulletin de l'Association de géographes français*, N: 16, 4^e année. pp: 41-44.

- 22-** Galibert, Gérard. (1958). «Problèmes humains et économiques de mise en valeur industrielle au Sahara occidental». Cahiers d'outremer. N: 42 - 11e année, pp: 142-172.
- 23-** Godlewski, Henri. (1942). «De l'eau au Sahara», *Revue des Deux Mondes*, Vol. 70, No. 2, pp: 209-216.
- 24-** Larnaude, Marcel. (1946). «La géographie du Sahara et l'institut de recherches sahariennes». *Annales de Géographie*, t. 55, n: 300, pp: 294-299.
- 25-** Lhote, Henri. (1937). *Le Sahara désert mystérieux*. Paris: Editions Bourrellet et Cie.
- 26-** Lhote, Henri. (1941). «Quelques objets à faciès paléolithiques trouvés dans le Sahara central». *Journal de la Société des Africanistes*, tome 11, pp: 141-146.
- 27-** Manue, Georges. (1959). «Chronique D'outre-mer». *Revue des Deux Mondes*, pp: 165-171.
- 28-** Monod, Théodore. (1938). «Remarques sur la structure du Sahara Occidental». *Bulletin de l'Association de géographes français*, N: 110, 15e année, pp: 5-10.
- 29-** Russo, Philippe. (1923). «Essai d'une histoire sommaire de la Zousfana et des oueds nord sahariens». *Annales de la Société linnéenne de Lyon et des Société botanique de Lyon*, Société d'anthropologie et de biologie de Lyon réunies, tome 70, pp: 110-120.
- 30-** Sabatier, Camille. (1891). *Touat, Sahara et Soudan : étude géographique, politique, économique et militaire*, Paris: Société D'Éditions Scientifiques
- 31-** Société Shell d'Alger, (1934-1935). *Guide du tourisme automobile et aérien au Sahara*. Alger: Shell Éditeur.



الملحق رقم 01: خريطة الطرق العابرة للصحراء الجزائرية سنة 1939م

(المصدر: Demoulin F: Les communications sahariennes)



الملحق رقم 02: مخطط توضيحي لأهم محطات طريق تنزروفت
(المصدر: gallica.bnf.fr)